سومر

الجزء الاول والثاني ـ المجلد السادس والاربعون

الطنافس

صناعة عراقية عربية قديمة

د . عبدالعزيز حميد

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

الطنافس ، ومفردها طنفسة ، ضرب متقدم جداً من ضروب البسط . والبساط في اللغة ، كما هو معروف لمعظمنا كل ما يفرشه الانسان على الارض لينام ، أو يجلس عليه . وقد شبه الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه الارض بالبساط وذلك في قوله جل وعلا : " والله جعل لكم الارض بساطا" .

وقبل ان يهتدي الانسان الى البسط المنسوجة من خيوط الصوف الغليضة ، وبسبب الظواهر الطبيعية المتميزة بالقسوة وجد انه من الضروري جداً ان يحمي جسده من اذى الطبيعة فيجعل شيئا يحول بينه وبين الارض المبتلة أو الباردة خاصة في موسم الشتاء . وبنفس الوقت ليخفف عن جسده شيئاً من خشونة الارض وصلابتها . ثم مالبث ان اخترع نسيجا غليظا من اوراق البردى أو من القصب المقطع طوليا في شكل شرائح ، فكان ان ظهر الحصير ، ولاندري كم من الزمن قد انقضى قبل ان يهتدي الانسان الى البسط المنسوجة من خيوط الصوف =المبرومة الغليظة . وفي اعتقادنا ان الاهتداء الى مثل هذا الامر لايمكن ان يكون قد تم قبل ان يبتدع الانسان الملابس المنسوجة اولاً .

ان قوام البساط خيوط طولية تسمى السدى (**WEFT**) وخيوط افقية تسمى اللحمة (**RAFT**) وهي خيوط عرضية تتداخل بشكل متناوب وبانتظام ، مع خيوط السداة . وعلى هذا فان البسط من الناحية العلمية لاتختلف في طريقة نسجها عن المنسوجات الاعتيادية المستخدمة في صناعة الملابس اللهم الا في متانة وغلظ الخيوط الداخلة في نسجها والتي ينتج عنها بالتالي قطع سميكة ومحبوكة من النسيج تصلح لان تفرش على الارض كما نفرش الحصير ، او قد تعلق على الجدران أو الابواب كسجف ان كانت اقل سمكا .

اما الطنافس والتي قلنا بانها ضرب منقدم جدا من البسط فانها تعرف بين المختصين واللغويين بانها بسط ذات خمل (**Pile Car-pets**) .

وتتميز عن البسط الاعتيادية بان لها خصل صوف تعقد حول خيوط السدى يخرج ـ رأسيها الى وجه البساط ثم تثبت هذه الخصل بواسطة خيوط اللحمة الاعراضية . ولتوضيح ذلك نقول ان النسج كان يتم بواسطة اله بسيطة تعرف بالنول اليدوي (**Hand-Loom**) قوامها عارضتان من الخشب متوازيتان ومثبتتان بين قطعتين من الخشب رأسيتين . تمتد بين هاتين العارضتين مجموعة من الخيوط المثبتة طوليا والتي كما قلنا تعرف بخيوط السداة . وتحت العارضة العليا توجد اسطوانة من الخشب تلف حولها الاطراف السفلية لتلك الخيوط . يحدد عرض كل من العارضتين عرض الطنفسة المراد نسجها . اما طولها فأمره متروك لرغبة الناسج فهو حر في ان يزيد من هذا الطول حسب الظروف التي تتحكم في عمله .

يبدأ نسج الطنفسة ، بان تعقد حول خيوط السدى خصل الصوف ، فاذا ما انتهى الناسج من عمل العقد حول جميع خيوط السدى التي اقامها في اتجاه افقي ثبت هذه العقد في مكانها بواسطة الضرب عليها ثم الشد فوقها بخيط واحد او اكثر يمر بها فوق العقد فتجري افقية وتسير محاذية لعارضتي النول وتسمى هذه الخيوط الافقية اللحمة . وهكذا تتكون الطنفسة من خيوط السدى الطولية وخيوط اللحمة الافقية وهذه جميعا تكون رقعة الطنفسة . ثم خصل الصوف التي تعقد حول خيوط السدى وهذه تكون

لقد استخدمت العربَ الطنافس وعرفت عندهم عبر العصور المتعاقبة باسماء وتسميات مختلفة ، منها (القطيف)و (القطف)و (القطيفة) . وقد عرف القطيف بانه بساط له خمل . وكانت هذه التسمية متداولة بين العرب منذ العصر الجاهلي ، ثم في ايام النبي (عليه الصلاة والسلام) ، فقد ذكر انه كانت له قطيفه لها علم ، أي معلمة في طرفها ، وانه جعلت تحته حين دفن عليه الصلاة والسلام قطيفة حمراء[2] . ومع ذلك فان القطيفة ليست بالضرورة ان تكون بساطا حيث روى انه شوهد النبي(ص) وعليه قطيفة فدكية[3] . فالقطيفة هنا قد تعني ايضا ضربا معينا من ضروب الاكسية . وعن لفظة (القطيف او القطف) ففقد وردت عند الطبري في حوادث سنة ١٥ هجرية ، ان العرب المسلمين في تلك السنة عند تحريرهم واستعادتهم للمدائن كبرى مدن العراق ، من براثن الاستعمار الفارسي البغيض ، على اثر معركة القادسية الشهيرة ، استولوا على طنفسة هائلة كان ملوك الفرس يكسون بها ارض ايوان المدائن ، لم يستطع الفرس الاعاجم ان ينقلوها معهم لثقلها وسعتها غير الاعتيادية . فقد ذكر الطبري انها كانت "ستين ذراعا في ستين مقدار جريب" . أي ان مساحتها تزيد على تسعمائة متر مربع . وتسكت المصادر التأريخية عن البلد الذي نسجت فيه هذه الطنفسة فنحن لاندري ان كانت قد نسجت في العراق ام في غيره من البلدان .

ومن الاسماء الاخرى التي عرفت بها الطنافس هي (الزرابي) جمع (زربي) والتي لاتزال تطلق على الطنافس الكبيرة في بلاد المغرب العربي ، وهي تونس والجزائر والمملكة المغربية . وقد وردت هذه اللفظة وبهذا المعنى في القرآن الكريم : وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية ، في جنة عالية ، لاتسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة واكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة"[4] . وقد فسرت الزرابي هنا بانها بسط طنافس لها خمل[5] . ومن الواضح ان الاشارة الى الطنافس هنا جاءت في وصف الله سبحانه وتعالى للجنة مما يدل بوضوح على نفاسة الطنافس وعلو قدرها .

ومن الاسماء الاخرى التي تعرف بها الطنافس في وقتنا الحاضر في العراق وبعض الاقطار العربية الاخرى ، مثل مصر هي (السجادة) . ومن البديهي ان هذه اللفظة مأخوذة من السجود أي انها خاصة بالصلاة ، فهي في الاصل اذن أي بساط صغير طاهر يقيم عليه المسلم أو المسلمة صلواته عليه . وفي العادة ترفع ولاتترك على الارض بعد اتمام الصلاة . ان استعمال سجاجيد الصلاة لم يكن مقتصرا على المنزل فقط ، بل كثيرا ما كان الرجل يأخذ معه بساط الصلاة الخاص به عند ذهابه الى المسجد ليقيم صلاته عليها هناك ، اذ كما هو معروف ، ان المساجد الاولى في الاسلام لم تكن حتى مبلطة بالآجر أو الجص أو غير ذلك حيث ذكر ان اول من قام من الولاة المسلمين بأكساء بيوت الصلاة في المساجد الجامعة كان زياد بن ابي معاوية . والي العراقين من قبل معاوية بن ابي سفيان فقد فرش بيت الصلاة في جامع البصرة بطبقة من الحصى الناعم وذلك في سنة ٥٠ هجرية (٦٧٠م) ولا ندري متى باتت بيوت الصلاة في المساجد الجامعة أو غيرها تفرش بالحصر او البسط ، ربما كان ذلك في زمن ما من العصر العباسي هذا ولايزال المسلمون في بعض دول الخليج العربي يقيمون صلاة العيدين في العراء خارج المساجد فيأخذ الناس معهم لاداء تلك الصلواة سجاجيدهم الخاصة بهم ومافتأت اقطار المغرب العربي تقتصر في طلاق كلمة سجاده على الطنفسة الصغيرة الخاصة بالصلاة فقط .

وينفرد العراق الحديث عن باقي الاقطار العربية بتسمية الطنافس بالزوالي ، مفردها (زولية) . ولاشك ان التسمية ليست حديثة فقد كانت معروفة ومتداولة في العراق في الاقل في النصف الثاني من العصر العباسي . حيث يكتب لنا ابن الجوزي في معرض حوادث سنة ٤٩٤ هجرية (١١٠٠م) :"وفي هذه السنة قتل السلطان بركيارق خلقا من الباطنية ممن تحقق مذهبه ومن اتهم به فبلغت عدتهم ثلثمائة ونيف ووقع التتبع لاموال من قتل منهم فوجد لاحدهم سبعون بيتا من الزوالي المحفور[6]"

---

(١) مرزوق ، محمد عبد العزيز ، الطنافس البدوية الاسلامية ، مجلة المجمع العلمي العراقي المجلة ، ١٩٦٩ ، ص١١

(٢) ابن حنبل ، احمد ، المسند ، ١/٢٨٨ .

(٣) الطبري ، التاريخ ، ٤/٢٢ .

(٤) سورة الغاشية : الايات ٨ ـ ١٦ .

(٥) تفسير الجلالين ، ص ٧٩٦ ، طبعة بيروت ، ١٩٧٦ .

(٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٩/١٢٠ .

ويذكر لنا ياقـوت الحموي في (معجم البلدان) تحت كلمـة قطيفة : والقطيفة تصغير القطيفة ، وهو كساءٌ له خمـل بفرشـة الناس وهو الذي يسمى اليوم (زولية) ومحفورة .[٧] وفي اعتقادنا ان لفظة (زولية) ربما هي تحريف لكلمة (زربيّ) ، خاصـة وان الجمع يتشابه ايضا ، فان جمع (زوربيّ) هو(زرابيّ) وجمع زولية هو (زوالي) .[٨]

امـاعن لفظة طنفسـة فقـد جـاء في(لسـان العـرب)ان من معانيهاالبساط الذي لـهخمل رقيق . وللكلمـة ذكر في الحـديث الشريف[٩] . كما ان الكلمة بهذا المعنى قد وردت بشكل واضح ايام خلافة عمر بن الخـطاب (رض)[١٠] . ولكن متى وأين ومتى اهتدى الانسان الى عمل البسط ذات الخمل أي الطنافس ؟ ان اغلب مؤرخي الفنون الذي كتبوا في هذا الميـدان يرجحـون ان المكان الذي اهتدى فيه الانسان الى عمل الطنافس يقـع ضمن المنطقة الممتدة من حدود بلاد الصين شرقا وحتى اسيا الصغرى أي بلاد الانضول غربا[١١] . والكثير من هؤلاء المختصين يعتقدون ان القبائل الرحل التي كانت تجوب هذه التخوم هي التي توصلت الى هذا الاختراع . اما عن الطريقة التي توصلت فيها القبائل الرحالة الى عمل الطنافس فيرجحون الى الحياة غير المستقرة ـ لهذه القبائل وحاجة افرادها الماسة الى مايقيهم من البرد القارص المنبعث من الارض لاسيما في الليل وفي فصل الشتاء ، ثم طبيعة هذه الحياة التي تحمل الانسان على التخفيف قدر المستطاع من الامتعة قـد دفعت بهذه القبائل الى فراء حيواناتهم الداجنة يفـرشونها تحتهم حتى توفرلهم الدفـء المطلوب ، ولكن الحصول على هذا الفراء كـان يتطلب منهم التضحيـة بحيـوانـاتهم وهي راس مـالهم في الحياة . فالاكثار من ذبحها في سبيـل الحصول عـلى فرائهـا فيه خسارة كبيرة عليهم . ومن هنا اتجهوا الى محاولة الاستفـادة من الصوف دون الفراء فصاروا يحلقون اصواف هذه الحيوانات كلما طالت ويستعملونها فيما يشبه الفراء الاصلي وذلك بواسطة الآلة التي سبقت الاشارة اليها[١٢] .

اما متى اهتدى الانسان الى عمل الـطنافس وكم من الـزمن انقضى بين استعماله للفراء الطبيعي ، وانتقاله الى الفراء الصناعي أي عمل الطنافس ، فيرى هؤلاء المختصون بان الاجابة الشافية على هذا السؤال تكاد تكون مستحيلة . ومع ذلك فهم يقولون ان ذلك ربما قد تم في النصف الاول من الالف الاول قبل الميلاد . ولاشك ان الذي دفع بهولاء المختصين الى هذا الرأي هو الاكتشاف المهم الذي تم على يد بعثة سوفيتية برآسة المنقب الروسي رودنكو

---

(٧) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ .
(محمد عبد العزيز مرزوق ، المصدر السابق ، ص٣ .

(٩) ابن منظور ، لسان العرب ، ١٢٧/٦ .

(١٠) ومن طريف مايروى بشان الطنافس ايام خلافة عمر بن الخطاب (رض) ما يذكره لنا ابن سعد من ان الصحابي أبا موسى الاشعري اهدى لأمراة عمر عاتكة بنت زيد بن عمر بن نفيل طنفسة اراها تكون ذراعاً وشبرا فدخل عليها عمر فرآها فقال انى لك هذه ؟ فقالت اهداها لي ابو موسى الاشعري ، فاخذها عمر فضرب بهـا رأسها حتى نغض رأسهـا ثم قال عـلي بابي مـوسى الاشعري واتعبوه قال فأتى به قد اتعب وهو يقول لاتعجـل علي ياأمير المؤمنين . قال عمر ما يحملك على ان تهدي لنسائي ؟ ثم اخذها عمر فضرب بها رأسه وقال خذها لاحاجة لنا فيها .
(ابن سعـد ، الطبقـات الكبـيرة ، القسم الاول ، ص٢٢٢ ، طبعة ليدن ، ١٩٠٤)

(١١) Rieql, A.,AItorient Tapische, P. 44 .

(١٢) Caas- Ruedin, E.,Antique oriental Carpets, p.15.

(٨) يرى بعض المختصين في اللغات الشرقية ان كلمة (زولية) هي فارسية الاصل رغم ان الفرس لايـطلقون هـذه اللفظة او ماتقاربها على الطنافس . ان اللفظة للطنافس في اللغة الفارسية هي (قالي) اذ ذكروا ان هناك في الفارسية لفظة قريبة من كلمـة (زولية) وهي تعني (اللف أو الطي) . ومن هنا ربما شاع استعمالها عند اهل العراق للدلالة على الطنفسة نفسها . وعندي ان هذا التخريج فيه شيء من الغرابة حقا ، اذ ان الـطنفسة ، كـما هو معـروف للجميـع ، تعني البسط او (النشر) وليس (الـطي) أو (اللف) .

(Rudenko) وذلك في منطقة جبال الطاى(Komi Altai) في جمهورية منشورية الشعبية حيث تم العثور اثناء التنقيب على طنفستين واحدة عند قرية بزريك (Bazyryk) الواقعة قرب حدود الصين والثانية في منطقة بخادار(Bochadar) في اواسط منشورية .

وعلى الرغم من ان الثانية اكثر حبكا من الاولى حيث ان في كل انج مربعة منها(٤٥٠) عقدة ، في حين ان في الطنفسة الاولى (٣٢٠) عقدة فقط ، فان لطنفسة بزريك شهرة عالمية فاقت شهرة الطنفسة الاولى . فلا نكاد نجد كتابا يبحث في الطنافس الا وفيه اشارة اليها[٩٣] . والسبب في شهرتها يعود الى ان هذه الطنفسة وجدت كاملة تقريبا وتزينها رسوم لاشكال حيوانية اضافة الى ماتضمه من زخارف نباتية وهندسية .

لقد كشفت معاول الاثاريين عن هذه الطنفسة في صيف سنة ١٩٤٩ في مقبرة شبه ملكية خاصة ببعض رؤوساء القبائل (الشيبية) الرحالة وهي القبائل التي كانت تجوب جنوب سيبريا وغرب الصين وبلاد تركستان ، وهي قبائل لم تعرف اطلاقا أي ضرب من اشكال الكتابة والتدوين . لقد وجدت هذه الطنفسة مع قطع اثار واسلحة ولوازم اخرى مختلفة اضافة الى جثث عدد كبير من الخيول محفوظة بشكل جيد بين طبقتين من الجليد الصلد . ولاشك ان الجليد هذا هو الذي حافظ لنا على هذه الاثار طيلة هذه القرون الطويله بهذا الشكل الممتاز .

الطنفسة وهي مربعة طولها متران تقريبا(ستة اقدام وستة عقد) من الصوف الخالص ويغلب على الوانها في الوقت الحاضر الاحمر الداكن والبني كذلك الاصفر التبني . ولا شك ان الوان الطنفسة كانت اكثر حدة غير ان حدة الوانها قد انكسرت أو تغيرت قليلا بسبب الدفن لفترة زمنية طويلة جدا . وتزين ساحة الطنفسة زخارف هندسية ونباتية بسيطة يحيط بها عدد من الاطر والاشرطة (شكل ١) . ان اهم تلك الاشرطة شريطان . يضم الاول صفا طويلا من الفرسان يمتطون صهوات الجياد ويحملون بايديهم رماحا مشرعة عددهم ثمانية وعشرون فارسا(شكل ٢) . ويزين الشريط الثاني صف من غزلان الأيل عددها اربعة وعشرون (شكل٣) .

ان الطنفسة بزريك هي بلا ادنى ريب من الطنافس ذات الخمل ولم تستخدم فيها مايعرف بطريقة الانشوطات (Weft-Winding) وذلك كما اكد وبرهن لنا مكتشف الطنفسة رودنكو[٩٤] . لقد استعمل فيها ما يعرف في الوقت الحاضر بين المختصين بالعقدة التركية أو ماتسمى احيانا بعقدة جيوردز . . (Ciordes) نسبة الى مدينة في اسيا الصغرى كانت مشهورة في صناعة الطنافس منذ القرن السادس عشر الميلادي . والطريقة فيها ان خصلة الصوف تدور حول خيطين متجاورين من السدى بحيث تجمع بينهما من اعلى ثم يدور طرفاها غائصين في مستوى الرقعة وراء هذين الخيطين ثم يجتمعان فينفذان بينهما صاعدين معا متلامسين الى وجه الرقعة فيحلان محلهما من خميلة البساط (شكل ٤) .

ان من المهم في طنفسة بزريك ان معظم المختصين قد ذهبوا الى ان هناك تشابها عظيما بين زخارف تلك الطنفسة والزخارف الاشورية[٩٥] ، خاصة مايتعلق منها بالزخارف النباتية والشريط الذي يضم في داخله غزلان الايل . حتى ان بعض هؤلاء المختصين اكد ان الطنفسة يجب ان تكون بابلية أو اشورية الصنع[٩٦] .

---

(١٣) Benett, L, Oriental Carpets and Rugs, p. lo

(١٤) Cans Ruedin, Op, Cit, O ll وعلى الرغم من الاتفاق العام بين المختصين ، على اعتبار طنفسة بزريك واختها طنفسة نجادر هما اقدم الطنافس الحقيقية ذات الرقعة والخميلة فان بعض المختصين ومنهم الدكتور اردمان Erdmann وايده فيها الدكتور عبد العزيز مرزوق . يرون انهما ليست بطنافس ذات خمل حقيقي ، فهي ليست حسب رأي هؤلاء نتيجة استعمال خصل الصوف المستقل المشدود بخيوط السدى . ولكها نتيجة طريقة مايعرف بالانشوطات ، وهي خيوط من الصوف تمتد على عرض الرقعة وتسير في موازاة خيوط السدى مكونة في سيرها انشوطات متصلة ، ثم تقطع رؤوس هذه الانشوطات بالمقص ، فتبدو اطراف الخيوط على هيئة خمل . وهي نفس الطريقة التي تستعمل اليوم في الطنافس الميكانيكية . ان هذا القول مغاير تماما لما كتبه الاثارى رودنكو الذي كشف النقاب عن تلك الطنفستين وغيره من العلماء .

(محمد عبد العزيز مرزوق ، المصدر السابق ، ص ١٧) .

(١٥) Haack ,H., Oriental Rugs, P. 16.

(١٦) ومن الغريب ايضا ان بعض المختصين في الطنافس من المستشرقين يؤكدون لنا عن زخرفة هذه الطنافس هي اشورية تماما ومع ذلك فهم يرون ان اصلها ايراني .
(Cans- Raedin , Op , cit p. 12)

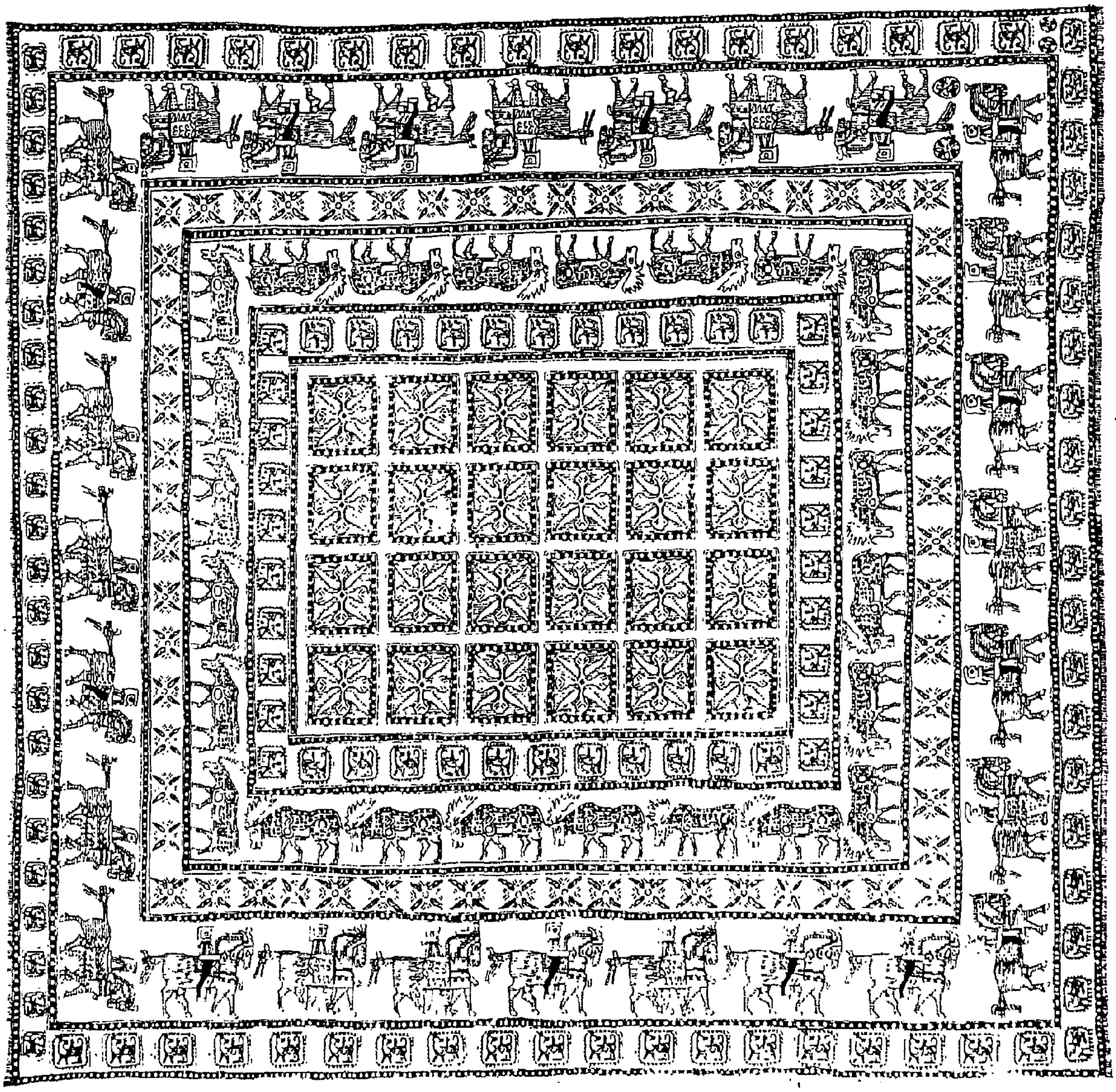

طنفسة بزريك التي ترجع الى منتصف الالف الاول قبل الميلاد محفوظة في متحف لنينجراد بالاتحاد السوفيتي .

والواقع ان نسبة هذه الطنفسة الى الاشوريين او البابليين هو ليس امرا مستغربا فمن الاموز المسلم بها ان عمل الطنافس يحتاج من المهارة الفائقة الشي الكثير واضافة الى مايحتاجه من الوقت الطويل . فلواردنا مثلا ان نصنع بساطا جيدا أو طنفسة جيدة وبنفس الحجم لوجد الناسج انه يحتاج من الوقت لنسج تلك الطنفسة ما لايقل عن عشرة اضعاف مايحتاجه لنسج البساط

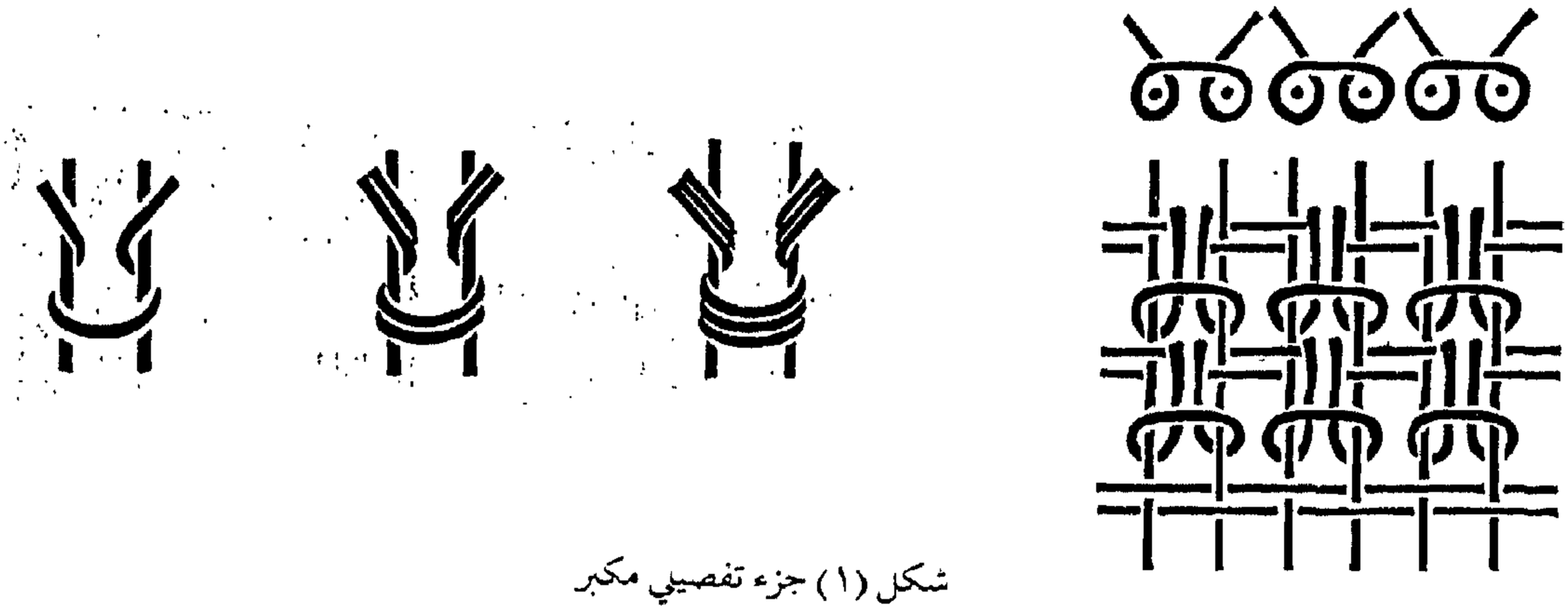

شكل (١) جزء تفصيلي مكبر

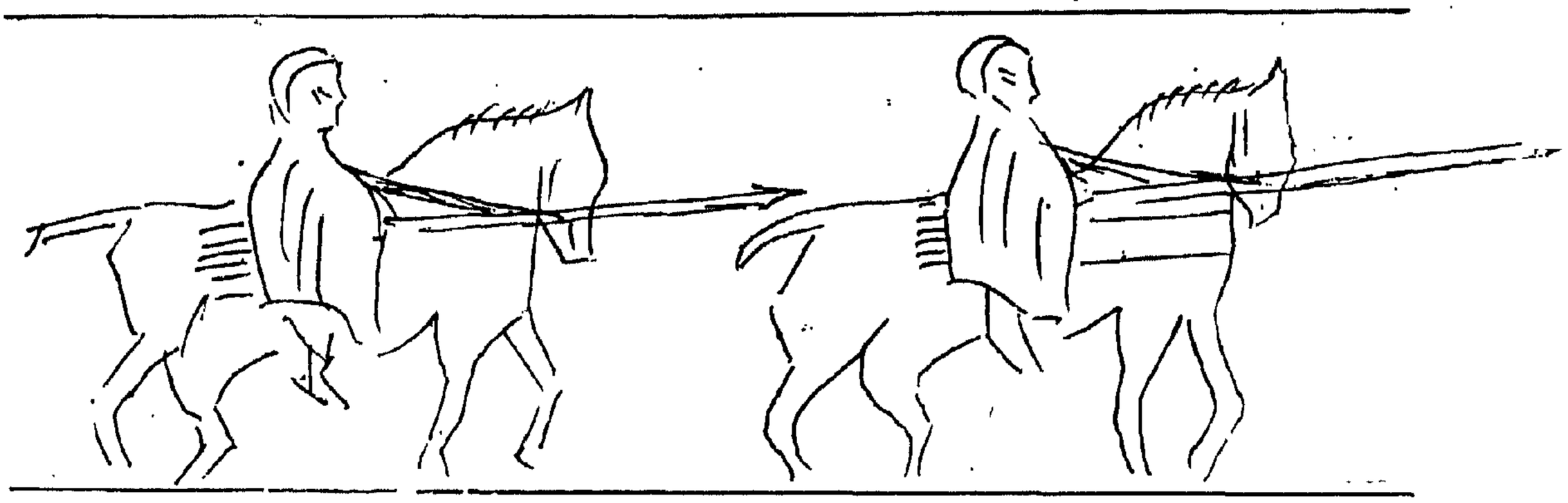

شكل (٢) تفاصيل لبعض رسوم طنفسة برزيك

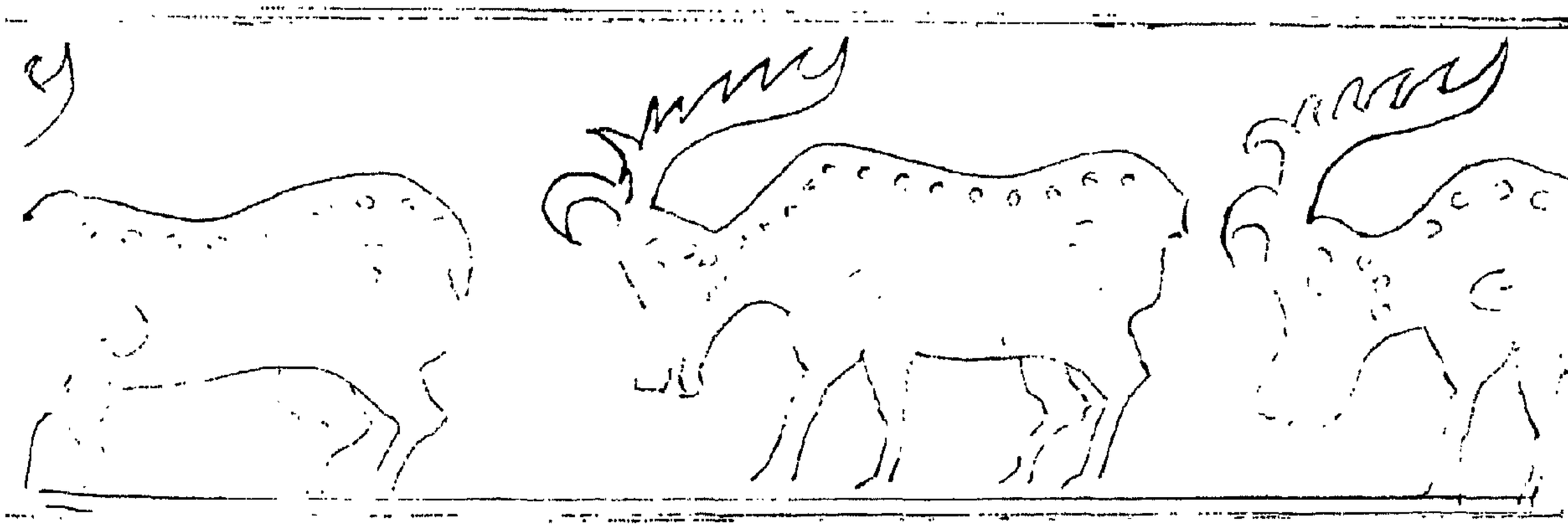

شكل (٣) تفاصيل لبعض رسوم طنفسة بزريك

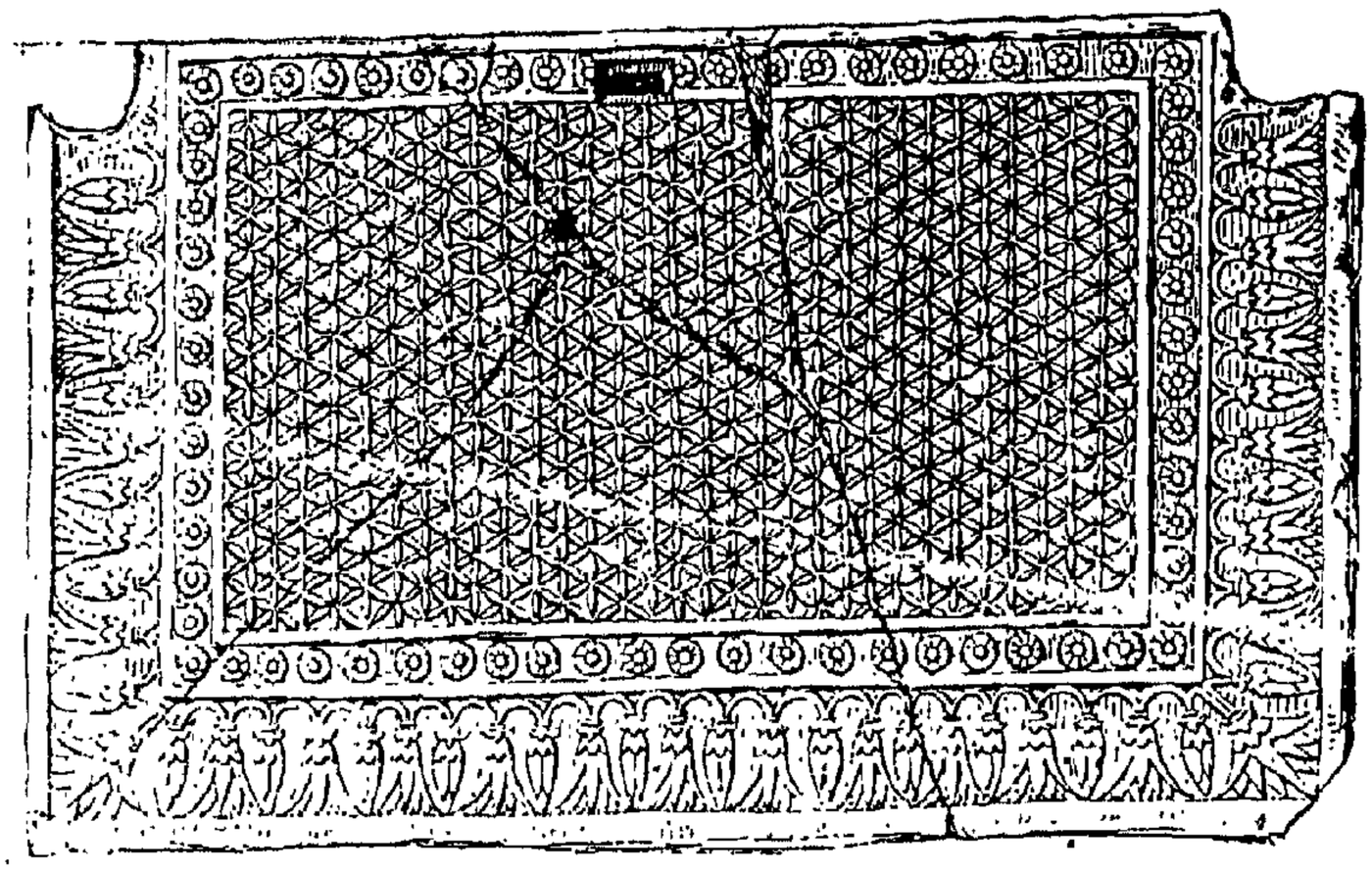

شكل (٤)

خصل الطنافس المعروفة بعقد جيوردس او العقده التركية .

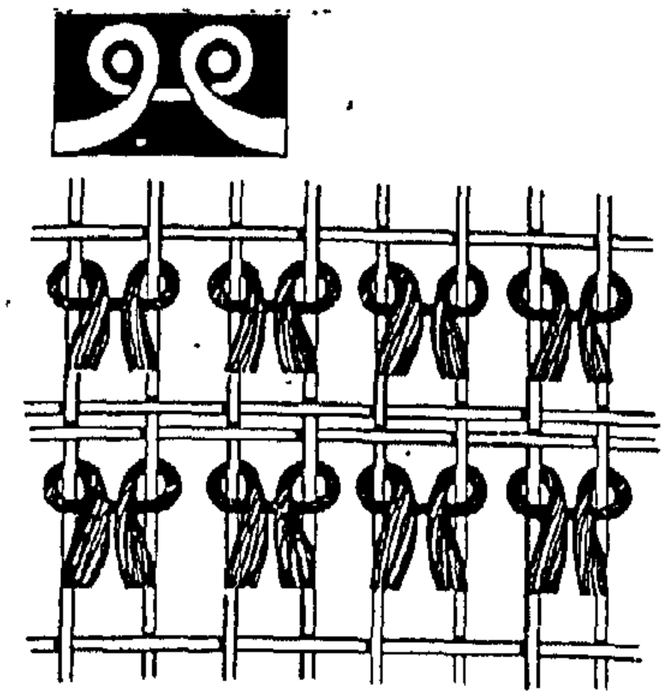

شكل (٥) شكل لطنفسة اشورية محفورة على الرخام الموصلي كانت تزين احدى بوابات مدينة خرساباد الاشورية . محفوظة في متحف اللوفر بباريس . (عن الدكتور وليد الجادر ، الحرف والصناعات اليدوية) .

الاعتيادي . اضافة الى ما يجب ان يتحلى به الصناع من الدقة والمهارة الفائقة والذوق الرفيع . فلا ندري لم لا نتصور ان اصحاب الحضارات العظيمة الراقية القديمة هم اول من عمل الطنافس مثل الاشوريين أوالبابليين أوحتى المصرين القدماء ، خاصة ان الدقة في العمل والمهارة والخبرة هي اكثر توفرا عند اصحاب الحضارات منها عند البدو الرحل .

ان صناعة الطنافس عند العراقيين القدماء معروفة تماما فقد كانت من المكملات الضرورية للعمارة عند الاشوريين والبابليين بشكل خاص . ان الاستعانه بالطنافس في قصورهم ومعابدهم قد اضفت على تلك الاماكن منزلة عالية اسهمت بشكل اوبآخر في هيبة وخصوصية القصر والمعبد . واذا لم نتوصل خلال التنقيبات الاثرية في مواقع كبريات المدن الاشورية والبابلية على نماذج حية من تلك الطنافس العراقية ، فان الوثائق المتوفرة التي بين ايدينا توضح بشكل أو باخر طبيعة تلك النماذج اضافة الى مايتوفر من اشارات ترمز الى بعض انواعها في الوثائق المكتوبة بالنصوص المسمارية[١٧] . ولقد وصلنا نموذج لطنفسة اشورية منقوشة بالنحت البارز على لوح من الرخام الموصلي وجدت عند احدى بوابات مدينة خرساباد الاشورية ، وهي محفوظة اليوم في متحف اللوفر بباريس . وهذه الطنفسة لاتختلف كثيرا عن طنفسة بزريك من حيث التقسيم العام . فهي تضم في الوسط ساحة كبيرة تزينها زخارف هندسية دقيقة ويحيط بها شريطان . غير ان هذين الشريطين يضمان هنا بدلا من الايائل او الفرسان زهور اللوتس ، في شريط وصف من الوريدات الكبيرة في الشريط الاخر(شكل٥) . كذلك نجد بين الالواح الحجرية الاشورية ذات النحت البارز مجموعات من الخيول المسرجة . تبدو السروج وكأنها طنافس صغيرة تزينها الزخارف الهندسية الدقيقة وهي تنتهي باهداب طويلة معقودة على نفس الشاكلة والنمط الذي نجده في الطنافس(شكل٦)[١٨] .

ومما لاشك فيه ايضا ان صناعة الطنافس كانت شائعة جدا عند البابليين . وقد ظلت هذه الصناعة مزدهرة عند العراقيين القدماء حتى بعد دخول الاسكندر المقدوني الى بابل في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد . نفهم ذلك من الكتابات اليونانية والرومانية والتي تدل ايضا على اعجاب هؤلاء الاجانب من

---

(١٧) الجادر ، الدكتور وليد ، الحرف والصناعات اليدوية ، ص ٠ (١٨) نفس المصدر ، ص ٣٢٢ ، ٣٢٠

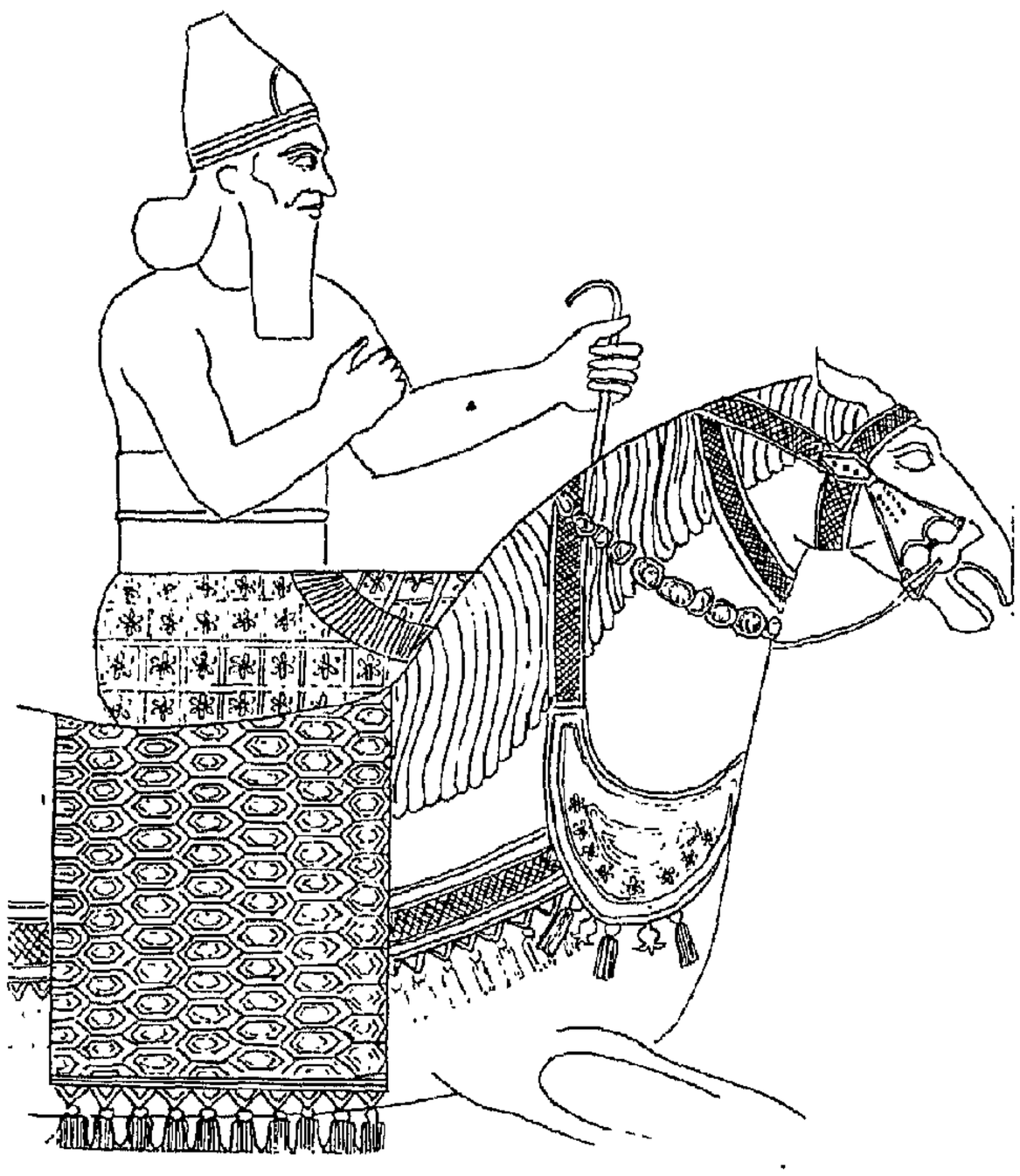

شكل (٦) نحت بارز على الرخام الموصلي لملك اشوري من العصر السرجوني يمتطي صهوة جواد على ظهره طنفسة صغيرة ذات هدب أستخدمت عوضاً عن السرج (عن الدكتور وليد الجادر وضياء العزاوي ،

الغربيين بالطنافس البابلية عصرئذ .

لقد اشاد المؤرخ بليني مثلا بجودة الطنافس البابلية سواء كان في حسن حبكها أو في جودة الوانها وفي الطرق التي كانوا يتبعونها في خلطها . فكثيراً مانجد تردد اسم الطنافس البابلية في المدونات الرومانية .

ومما يؤكد صحة ما ذهبت اليه تلك المصادر الاجنبية فان الحفائر الاثرية في السنوات القليلة الماضية قد كشفت النقاب عن دراية العراقيين في صناعة الطنافس في عصر الاسكندر المقدوني وخلفائه وانهم لم يحصلوا على تلك الشهرة في هذه الصناعة الابجدارة واستحقاق ، اذ كشفت حفائر اثرية قامت بها بعثة يابانية في موقع تلول الطار (Altar) الواقعة على بعد خمس وثلاثين كيلو مترا جنوب غربي كربلاء قرب بحيرة الرزازة عن كمية كبيرة من المنسوجات يصل عددها الى حوالي الف وخمسمائة قطعة بينها اجزاء من بسط سميكة وطنافس [١٩] .

وقبل ان نبدأ في دراسة القطع من الطنافس التي وصلتنا من هذه الموقع لابد اولا ان نوضح للقارىء الكريم الظروف التي ساعدت في وصول هذه المجموعة الكبيرة من قطع المنسوجات الينا رغم مرور كل هذه القرون الطويلة وهي مدفونة في باطن الارض في حين لم نحصل على شيء يستحق الذكر من المنسوجات من المواقع الاخرى في العراق ، ان السبب في هذا يعود بشكل اساسي الى الارتفاع غير الطبيعي للموقع بالنسبة الى الارض المحيطة به وجفاف المنطقة المحيطة به بسبب وقوعها على الحافة الشرقية لبادية الشام والتي كانت تعرف سابقا ببادية او مفازة السماوة . لقد كشفت بعثة التنقيب اليابانية عن قطع النسيج فوق ارضيات مجموعة من الحجرات المربعة والمستطيلة نقرت داخل تلول الطار الصخرية ، وذلك في صفين سفلي وعلوي . ان مستوى ارض الصف السفلي من هذه الحجرات يرتفع عن مستوى الارض المحيطة بحوالي ثلاثة وسبعين مترا . في حين يرتفع الصف العلوي منها سبع وسبعين مترا عن الارض الخارجية مما جعل هذه الحجرات ليست فقط بعيدة عن التأثر بالسيول الناجمة عن مياه الامطار . بل اكسب هذا الارتفاع تربتها الجفاف الكافي لحماية ما تحوي في داخلها من قطع نسيج [٢٠] .

ومما ساعد على ذلك ايضا ان الحجرات المنقورة على شكل كهوف جعلتها بمعزل عن الريح العاتية والحرارة الشديدة في موسم الصيف ثم ان سقوف هذه الكهوف صارت بمثابة مظلة واقية دائمة حجزت عنها مياه الامطار والرطوبة في موسم الشتاء . كل هذا قد ساعد على بقاء هذه المواد العضوية سليمة الى درجة معقولة .

ان مما يهمنا من قطع المنسوجات المكتشفة في تلول الطار ، قطعا من البسط واجزاء صغيرة من طنافس ذات خمل لاتختلف في طريقة غرز عقدها عن الطنافس الاعتيادية . ليس هذا فقط بل انه قد

---

(١٩) لقد تمت هذه الحفائر بين سنتي ١٩٧١ـ ١٩٧٤ ونشرت نتائج تلك الحفائر في مجلدين ، ظهر المجلد الاول منه سنة ١٩٧٦ وظهر الثاني في سنة ١٩٨٤ .

(٢٠) **Fujii, H., Al-Tar, Vol. I, P. 6.**

تبين من دراسة الاجزاء المتبقية من قطع الطنافس ان طريقة غرز العقد فيها هي نفس ما يعرف بالطريقة التركية أي عقدة جيوردس التي سبقت الاشارة اليها وقوامها خصل صوف تلف حول خيطين متجاورين من خيوط السدى ثم يدور طرفاها وراءها ثم يصعدان متلامسين الى وجه الطنفسة[٢١] .

تلب على الوان قطع طنافس الطار اللونان الاحمر والاصفر . اما بالنسبة للموضوعات الزخرفية فالواقع ان ما وصلنا من القطع هي من القلة والصغر يصعب معها تكوين فكرة واضحة عن موضوعاتها الزخرفية . ومع ذلك فيمكننا القول بأنه تغلب عليها الزخارف الهندسية البسيطة مثل الخطوط المتكسرة والدوائر وغير ذلك (شكل٧) . هذا بالنسبة الى الالوان والموضوعات الزخرفية ، اما بالنسبة الى تاريخ هذه القطع فقد تم تحديدها في مختبرات جامعة طوكيو باليابان فقد ثبت بشكل علمي دقيق عن طريق تحليل مايعرف بالكاربون ١٤ المشع حيث ضحى اليابانيون بمئتين وعشرين قطعة صغيرة من المنسوجات ليوفروا الكمية اللازمة لمثل هذا التحليل[٢٢] . لقد تبين ان تاريخ قطع الطنافس ينحصر ضمن الفترة الواقعة بين القرنين الثالث والاول قبل الميلاد . واذا اردنا ان نكون اكثر دقة فنقول ان نتيجة التحليل هي ١٤٠ قبل الميلاد زائداً او ناقصاً تسعين سنة(١٤٠ق .م ∓ ٩٠)

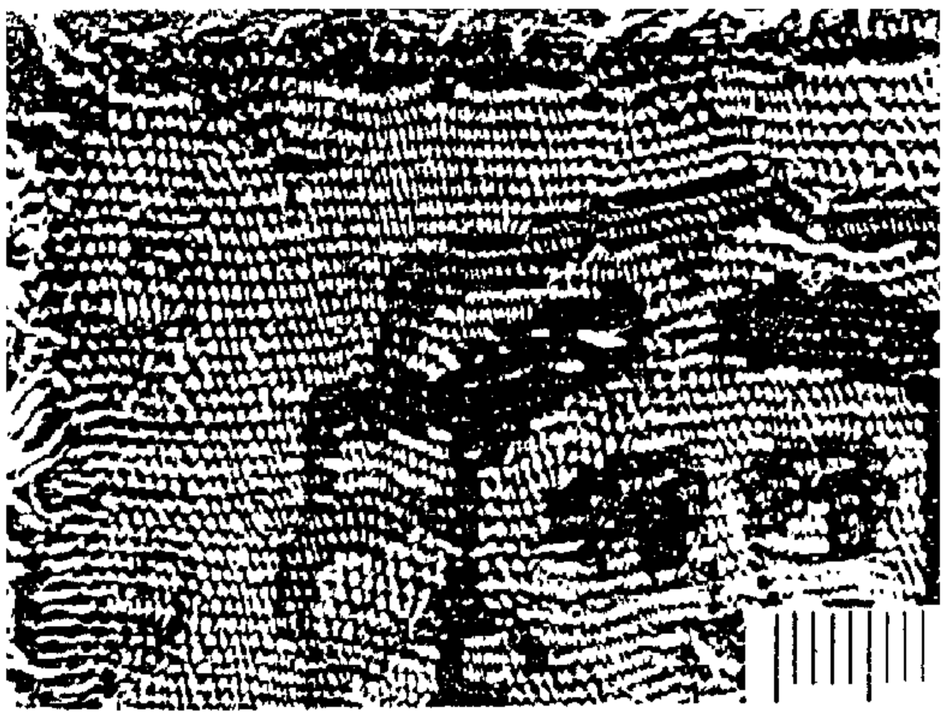

شكل (٧) طنافس الطار في العراق

وعلى ذلك فان هذه الطنافس ذات الخمل هي صناعة من صناعات العراق القديمة المؤكدة . ومما يؤكد شهرة العراق ايضا في صناعة المنسوجات قبيل العصر المسيحي ان نائب الامبراطور الروماني في فلسطين وشرق الاردن هيرود(Harod) بعد فتحه لمدينة القدس زين القاعة الكبرى لمعبدها الرئيس سنة ١٩ قبل الميلاد بطنفسة عراقية نسجت في مدينة بابل قيل انها كانت هائلة المساحة حيث ذكر المؤرخون الرومان ان طولها خمسين ذراعا وعرضها ستة عشر ذراعا غلبت عليها الالوان الارجوانية واللازوردية [٢٣].

ويعتقد ان لشهرة مدينة بابل ابان تلك الفترة في انتاج اجود انواع السجاد ولمهارة ناسجيها فان هناك احتمال في ان عددا كبيرا منهم قد نقلوا قهرا الى سوسة على ايدي الملوك الاخمينيين ليعملوا في انتاج السجاد هناك وذلك منذ ايام داريوس الاول (٥٢١-٤٨٦ق.م) وخليفته احشويرش[٢٤] . وعلى ذلك فربما ان صناعة الطنافس في ايران قد قامت في بداية امرها على اكتاف هؤلاء النساجين العراقين ، ويبدو ايضا ان الصناع اليونانيين قد جاولوا فيمابعد أي بعد فتح الاسكندر للعراق في سنة ٣١٨ قبل الميلاد ، تقليد القطع الفريدة التي كان ينسجها الحرفيون والنساجون البابليون وغيرهم من نساجي الطنافس في امهات المدن العراقية عصرئذ .

واخيرا فانه لابد ان نلفت نظر القاريء الكريم الى ان من الاسباب الرئيسة التي نالت بسببها الطنافس الشرقية شهرتها العظيمة وذلك منذ مطلع العصر المسيحي ، سواء كان ذلك عند الرومان او البيزنطيين ومن بعدهم عند الاوربيين ، لايعزى الى توافق زخارف تلك الطنافس ومتانة نسجها وحبك خصلها او عقدها فحسب بل يعود بشكل اكبر الى حفاظها على الوانها الثابتة الاصلية بعد مرور عشرات السنين على نسجها . واضافة الى كل هذا فانه من المتفق عليه بين المختصين في صناعة الطنافس ان الالوان في الطنافس الشرقية تزداد بريقا وقوة ولمعانا وجمالا مع مرور الزمن . ولهذا السبب نجد ان اصحاب هذه الصناعة كانوا دوما حريصين كل الحرص في الحفاظ على سرية تركيب وخلط تلك الالوان .

---

(٢١) ibid., P. 138.

(٢٢) ibid., P. 138.

(٢٣) الجادر ، دكتور وليد ، المصدر السابق ص ٣٢٦ ز

(٢٤) الجادر د. وليد ، السجاجيد الاشورية ، مجلة المثقف العربي ، العدد الرابع ، ١٩٨٧ ، ص١٢٧ .

ان الاساس في الالوان عند اصحاب الطنافس الشرقية هي اصباغ عضوية صرفة فلم يكن من ظمنها الوان معدنية او كيمياوية . وعندما دخلت الالوان الكيمياوية المعدنية الحديثة في تلوين الطنافس وذلك منذ الربع الاخيرمن القرن التاسع عشر مع دخول قشور الحضارة الاوربية الى الشرق ، اقبل صناع الطنافس عليها لرخص اثمانها وسهولة الحصول عليها ، فكان من نتيجة ذلك الاقبال الشديد عليها وترك الالوان النباتية القديمة المتميزة بالثبات فتدهورت صناعة الطنافس الشرقية الى درجة كبيرة . فلم تعد الوان الخيوط والخصل الداخلة في رقعة وخمل الطنافس ثابتة تماما كما كانت سابقا فباتت الالوان مع مرور الزمن تتغير نحو الافتح او الاعمق او ان تضرب الى لون آخر بغير نظام . كذلك صارت تلك الصبغات الكيميائية تؤثر تاثير سيئا في الصوف او الحرير الداخل في صناعة الطنافس مما جعل شعيراته سريعة التكسر والاندثار مما قصر بالتالي في عمر الطنفسة كثيرا .

ان الالوان القديمة التي كانت تستخرج من عصارات بعض اوراق او اغصان او جذور او ثمار بعض النباتات اضافة الى عصارات بعض ضروب الحشرات والتي اعتبرها الايرانيون والاتراك من الاسرار التي كانوا يحتفظون بها يتناقلونها جيلا عن جيل قد تبين لنا الان بشكل لايقبل الجدل انها عراقية وذلك بفضل الدراسات الحديثة التي جاء فيها ان جميع تلك الاصباغ النباتية او المستخلصة من الحشرات واسرار تركيبها وطريقة تثبيتها على المنسوجات الصوفية او غيرها كانت معروفة تماما عند قدماء العراقين وبشكل خاص عند الاشورين[25] . وخشية الاطالة فاننا نقتصر في هذا البحث على الاشارة الى الالوان الثلاثة الرئيسية فقط وهي الازرق والاصفر والاحمر .

لقد كان اللون الازرق المستخدم في تلوين الطنافس يستخرج بشكل رئيسي من عصارة نبات النيلج الذي كان ولايزال ينمو في شمال العراق واماكن اخرى من بلاد الشرق الاوسط . لقد عرفت هذه الصبغة واستخدمت على نطاق واسع عند الاشورين واشتهرت عندهم بجودتها وديمومتها ومقاومتها . لقد عرف سكان وادي الرافدين في العصر القديم بشكل عام والاشورين بشكل خاص ان هذا النبات يحتوي على عصارة زرقاء طبيعية . فبعد ان تعرض النبتة الى الماء الساخن جدا تفرز عصارتها التي تكون في بادي الأمر خضراء اللون ثم بعملية التاكسد تتحول تدريجياً الى صبغة زرفاء غامقة[26] .

اما اللون الاصفر فان اصحاب صناعة السجاد كانوا يحصلون عليه بشكل عام من نبات الكركم والزعفران . وكانت الصبغة الصفراء المستخرجة من هذين النباتين معروفة تماما عند الاشوريين . فمن المعروف عن الزعفران مثلا انه من فصيلة النباتات ذات السيقان الارضية والاوراق الجذرية ازهارها محمولة على اغصان قصيرة . يمكن ان يستخلص منها صبغة صفراء برتقالية وصبغة صفراء تميل الى الاحمرار .

اللون الثالث هو الاحمر فان النوع البراق منه كان يحصل عليه من عصارة حشرة خاصة معروفة بحشرة (القرمز) ومنها جاء اسم اللون القرمزي . ان هذه الحشرة تعيش في ثقوب اشجار البلوط واشجار العفص . كانت تجمع هذه الحشرات وتجفف ثم تغلى فيتم الحصول على عصارتها ذات اللون الشديد الحمرة فتستخدم عندئذ في صباغة خيوط وبعض خصل صوف الطنافس . ولصبغ المنسوجات الصوفية .

وهكذا وكما اخذ الايرانيون في العصر الاخميني وما بعده من عصور ، جلّ العناصر الحضارية لسكان وادي الرافدين العظيم ، بما في ذلك فنون الاشوريين واساليبهم ونسبوها ظلماً اليهم ، فمما لاشك فيه ان من جملة ما اخذوه من العراقين القدماء اسرار صناعة الطنافس وصباغتها .

ثبت المراجع

١ ـ ابن الجوزي ، عبد الرحمن ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، حيدر اباد ، ١٣٥٧ هجرية .
٢ ـ ابن سعد ، محمد ، الطبقات الكبير ، ليدن ، ١٩١٧ .
٣ ـ ابن منظور ، محمد بن مكرم ، لسان العرب ، بيروت ، ١٩٥٦
٤ ـ الجادر ، الدكتور وليد ، الحرف والصناعات اليدوية في العصر الاشوري المتأخر ، بغداد ، ١٩٧٢
٥ ـ الجادر ، الدكتور وليد ، السجاجيد الاشورية ، مجلة المثقف العربي ، العدد الرابع ، ١٩٧٨
٦ ـ الحموي ، ياقوت ، معجم البلدان ، طبعة دار صادر ، بيروت

(٢٥) الجادر ، الدكتور وليد ، الحرف والصناعات اليدوية في العصر الاشوري المتأخر ، ص ١٥٩ـ ٢٢٤

(٢٦) المصدر السابق ، ص ١٧٦

٧ ـ الطبري ، احمد جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، طبعة دار المعارف ، ١٩٧٩
٨ ـ المحلي ، جلال الدين محمد ، والسيوطي جلال الدين عبد الرحمن ، تفسير الجلالين ، بيروت ، ١٩٧٦
٩ ـ مرزوق ، الدكتور محمد عبد العزيز ، الظنافس اليدوية الاسلامية ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، عدد ١٨ سنة ١٩٧٩

10 Benett ,l., Oriental Carpets and Rugs, london, 1972 Erdmann, K.,Seren Hundred Years of Oriental

Carpets, London, 1970

11. Fujii, H., Ae-Tar, Tokyo, 1976- 1984

12. Gans- Ruedin, E, Antique Orintal Carpet,

13. London, 1975

14. HaaK, K., Oriental Ruqs

15. Rieql, A., A., Altorient Tapische , Berlhn